د. محمد مصايف

# الادب العربي المعاصر وآفاق المستقبل

يتألف هذا الموضوع من شقين اثنين : حالة الادب العربي في العقود الاخيرة ، والافاق التي يطمح الى بلوغها في المستقبل .

وهما شقان يؤدي اولهما الى ثانيهما بالضرورة ، فالحديث عن الادب العربي في حالته الحاضرة لا بد ان يجرنا في آخر الامر الى التساؤل عما ينطوي عليه من امكانات ، ويمكن ان ينتظره من عقبات .. ولذلك كان من الطبيعي ان نبدأ بمحاولة وصف تقريبية للمستوى الذي بلغه ادبنا في هذا القرن ، والمشاكل التي يعاني منها ، وبخاصة بعد الحرب الكونية الثانية .

ان اول ما يمكن ان يلاحظه باحث نزيه هو ان الادب العربي الحديث انتقل نقلة عملاقة منذ ظهور التباشير الاولى للنهضة العربية .

ويكفي ان نتذكر ما كان عليه هذا الادب قبل سامي البارودي ، ونقارن بينه وبين ما وصل اليه في السنوات الاخيرة من نضج ، لندرك سعة هذه النقلة وعمقها ، ولنعلم ان الادب العربي سار شوطا كبيرا الى الامام بالرغم مما اكتنف سبيله من معوقات . ففي القرن الماضي لم يكن الاديب العربي يعرف الا مذهبا واحدا في الشعر تقريبا ، وهو المذهب الغنائي الذي صاحب هذا الشعر منذ نشأته الى اليوم. والى الحرب الكونية الاولى لم يكن نثرنا يعرف سوى فنون المقالة ، والمقامة ، والرسالة ، والخطبة ، والحكاية ، وما كادت هذه الحرب تنتهي حتى انفتح نثرنا وشعرنا معا على سائر المذاهب والفنون الادبية التي كانت متأصلة في الاداب الغربية ، وحتى سلك الشعر العربي مسالك لم تدر بخلد الشاعر القديم ، فظهر الشعر الرومانسي بالمفهوم الغربي لدى افراد جماعة الديوان وشعراء المهجر ، ونضج الشعر الذاتي في عهد جماعة ابوللو التي لم تكن في الواقع سوى امتداد طبيعي للشعر العربي الحديث ذي النزعة الرومانسية .

اما في النثر فكانت رواية « زينب » وقصة « في القطار » ، وغيرهما من المسرحيات تحولا عظيما اصاب النثر في الربع الاول من هذا القرن ، ولسنا هنا بصدد التاريخ للادب العربي حتى نذكر « حديث عيسى بن هشام » ، « الساق على الساق » وغيرهما من الاعمال الموفقة التي لفتت نظر الادباء العرب الى ما في الاداب الغربية من مذاهب وفنون . ولا نظن ان الادب العربي الحديث شهد في المقالة الادبية ، فاذا زعم عباس محمود العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وميخائيل نعيمه وغيرهم انهم فتحوا للادب العربي مجالات حديثة لم يلجها من قبل ، فان من حق هؤلاء الاساطين ان نعترف لهم بهذا الفضل ، وان تعد اعمالهم الجيدة مرحلة حاسمة في تطور الادب العربي الحديث ، وبلوغه مرحلة النضج والاخذ والعطاء مع الاداب العالمية الاخرى .

ان لهذا التطور عوامل موضوعية افاض فيها مؤرخو الاداب بما فيه الكفاية ، والعامل الاساسي لهذا التحول الكبير في نظرنا انما هو هذا الاتصال الوثيق الواسع بين ادبنا والاداب الغربية الكبرى . ونحن نخالف هنا ما ذهب اليه الاستاذ العقاد من ان تطور الشعر العربي في مضمونه وشكله يمكن ان يكون ذاتيا(١) ، فتاريخ الاداب الانسانية الكبرى ، ومنها الادب العربي ، يثبت ان أي تطور انما يحصل عن طريق الاحتكاك والاستفادة مما عند الاخرين ، وهو ما حصل بالفعل للادب العربي ، فلم يكن من المنتظر ابدا ان يتنوع هذا الادب في فنونه ، وان يجرب جميع الاشكال المستحدثة بنجاح في أغلب الاحيان ، ولا ان يظهر فيه شعراء وكتاب ممتازون في مختلف الاقطار العربية الواسعة ، دون هذا الاحتكاك الذي بدا باظهار ادبائنا على تخلفهم وتواضعهم بالقياس الى أدباء الغرب ، ثم انتهى بدفعهم الى تجديد ادبهم ورفعه الى مستوى الاداب الكبرى في كثير من الفنون ، ان هذا الاحتكاك هو العامل الاساسي في النهضة الادبية التي شهدها الشرق العربي في هذا القرن ، وشهدتها بلدان المغرب العربي بعد هذه الفترة بقليل .

وكان لهذا الاختلاف في بداية النهضة اثره الحسن على وحدة الادب العربي . فاذا كان الاحتكاك المشار اليه آنفا قد احدث هزات عنيفة في بعض الاقطار العربية ،

وبخاصة في مصر ، مما ادى الى ردود فعل محافظة قوية معوقة في هذه الاقطار فان الادب العربي في البلدان العربية الاخرى ، ولا سيما في المغرب العربي ، لم يصطدم بمثل هذه المعوقات ، وسار على الدرب الممهد الذي سار عليه هذا الادب في الشرق ، مما حفظ لفنوننا التقليدية والمستحدثة نوعا من الوحدة الضرورية لاكتمالها ونضجها فانك اليوم لاتكاد تحس بأي فرق بين المجموعات القصصية والشعرية الصادرة في المشرق ، والمجموعات الصادرة في المغرب العربي ، ومثل هذا يمكن ان يقال فيما يخص الرواية والمقالة وغيرهما من الفنون . ونحن نتكلم هنا بصفة عامة طبعا . والا فان الاختلاف في وجهات النظر والاسلوب لا بد ان يحدث بين ادباء المشرق وادباء المغرب ، بل بين ادباء البلد العربي الواحد . ولكن اختلافا من هذا النوع لا يقدح في وحدة الادب من الخليج الى المحيط ، بل يقوي هذه الوحدة ، ويسندها بتنوعات في الافكار والمواقف والفنون .

لقد كان لاحتكاك الادب العربي بالاداب الغربية الفضل في ان التفت ادباؤنا في المشرق والمغرب الى ما عند الغربيين من مذاهب وفنون ، وهو امر هام ينبغي ان نلح عليه كلما اردنا ان نؤرخ للادب العربي الحديث . وقد بدأ ادباؤنا بتقليد الفنون المستجدة ، واقتباس الاساليب المختلفة ، واعتناق الافكار والاتجاهات والعقائد التي كانت تشكل الاطار الفلسفي لهذه الفنون الغربية . وفي البداية لم يؤثر هذا التقليد وهذا الاقتباس وهذه الاتجاهات على ادبنا العربي الحديث . ولكن ما كاد الاديب العربي المعاصر يحاول ان ينطلق بجناحيه عبر هذه الاتجاهات والعقائد المختلفة حتى بدا شبح الأزمة في الافق ، وحتى اخذ النقاد العرب المعاصرون الواعون يتحدثون عما اسموه « أزمة الادب العربي » .

من الدراسات الهامة التي ألحت على عنف هذه الازمة دراسة الدكتور الحبيب الجنحاني ، التي قرأها باسم وفد تونس الشقيقة في المؤتمر التاسع للادباء العرب (٢) . وقد حاول الباحث التونسي ان يحدد اسباب هذه الازمة ، فربطها بالاوضاع السياسية القائمة في جل البلدان العربية . يقول الباحث : « ان اسباب هذا التأزم معقدة متشعبة مرتبطة وثيق الارتباط بأزمة الاوضاع في اكثر البلدان العربية . فالتحول العميق وتطور الاحداث السريع منذ الخمسينات جعلا العالم العربي يواجه سؤالا مطروحا عليه بشكل حاد وحتمي ، سؤال معركة المصير ، والمنعرج الذي يسلكه ، سؤال وضع الانسان العربي المعاصر ، العامل ، والفلاح ، والمفكر ، والسياسي بين الوجود واللاوجود (٣) .

ان الدكتور الجنحاني ينظر الى الازمة نظرة مفكر اكثر مما ينظر اليها نظرة اديب . ففي تصوره وتصور الكثيرين من المفكرين العرب ان ازمة الادب العربي انما هي من ازمة الاوضاع السياسية السائدة . وهو امر لا يخالفه فيه احد . انما طرح القضية بهذا الشكل العام يجعلنا نتساءل عن رسالة الاديب حيال امته ووطنه ، فليس منا من ينازع في ان النظم القائمة في بعض البلدان العربية تجعل من الصعب على الاديب ان يؤدي رسالته الانسانية والفنية على الوجه الأكمل . ولكن طريق الكلمة الحرة المدوية لم يكن في يوم من الايام مفروشا بالورود . فالاديب كان وينبغي ان يظل حرا يقول كلمته في كل الظروف . وهذا هو الامر الوحيد الذي لم نستفده من الاداب الاجنبية الكبرى . لقد اقتبسنا منها تقريبا جميع المذاهب والاتجاهات الفنية ، واقتبسنا اخيرا العقيدة الاشتراكية من العالم الاشتراكي ولكننا لم نقتبس من هؤلاء ولا من اولئك هذه اللهجة الحادة التي نعبر عنها في نقدنا بالصدق في بعض الاحيان ، فظل ادباؤنا في بعض البلدان العربية يرددون ما يرضي النظم القائمة في هذه البلدان . لو كانت هذه النظم شعبية تتوخى مصلحة الجماهير العربية لهان الامر ، ولاعتبر ذلك منهم مساهمة في توعية هذه الجماهير ، ودفعها الى مزيد من النضال في سبيل تقدم الشعب العربي . وقد ادت سلبية بعض الادباء وانتهازية آخرين ، الى انعدام الشخصية والاصالة في ادب هؤلاء الادباء ، مما سمح للدكتور الجنحاني بأن يلاحظ على ادبنا شعره ونثره ما سماه طغيان الشعارات والاساليب الخطابية التي تذكر على حد تعبيره « بالخطب السياسية وحملات التوعية الجماهيرية » (٤) .

ان لازمة الادب العربي اسبابا موضوعية . ومن اهمها في نظرنا طريقة تعامل الاديب العربي مع المذاهب والفلسفات الوافدة . فأديبنا بهرته جدة هذه المذاهب والفلسفات ، فاكتفى يترسم خطاها ، ومحاولة اقامة ادبه على اساسها . وبذلك نسي مبدأ اساسيا كان عليه ان يتذكره اثناء تعامله مع الافكار الجديدة ، وهو ان هذه الافكار لا تفيده ، ولا تثوي ادبه وفنه الا اذا انطلق في اقتباساته من ارض صلبة . وهذه الارض لن تكون غير التراث العربي الذي هو الضمان الوحيد لشخصيته واصالته . وقد تكون ازمة الشعر العربي الحديث خير مثال لهذا الفراغ الكبير الذي يعاني منه الاديب العربي . فجل شعرائنا المعاصرين اصبحوا يفتقدون ما يسميه بعض النقاد « الرؤية الكونية (٥) وذلك لانهم اخذوا ببعض النماذج الغربية ، فكرسوا جهودهم كلها لتقليدها والنسج على منوالها ، دون استنطاق نفوسهم واصالتهم ، ودون الانطلاق من وجهة نظر خاصة تعبر عن موقع شعوبهم من حركة التاريخ المعاصر ، الامر الذي جعل شعرهم على حداثته في الشكل والمضمون غربيا في لهجته ومنحاه ، وظهر فيه ما يطلق عليه النقد الحديث «ظاهرة الغموض» . ومن الواضح اليوم ان هذه الظاهرة لا يكفي في تفسيرها ميل هؤلاء الشعراء الى استخدام الاسطورة والرمز والحكاية التاريخية .

ويغالي بعض النقاد المعاصرين في وصف ازمة الشعر

الحديث فينفون عن هذا الشعر كل ثورية ، ويرمونه بالتقليد للشعر الغربي . ويؤكد الدكتور احمد بسام ان لسقوط الانظمة الاستعمارية والانظمة المرتبطة بها اثرا في فقدان الشعر لثوريته ، ( ٦ ) وكأن ثورية هذا الشعر انما كانت ثورية مناسبة ما ان اختفت هذه المناسبة حتى ارتد شعرنا الحديث الى الدرب الذي سار عليه الشعر العربي القديم في العصور السابقة ، او كأن الاوضاع الاجتماعية والسياسية التي تعيشها بعض الشعوب العربية أمست غير قادرة على امداد هذا الشعر بما يزيد من ثوريته ، وينمي طاقته النضالية . ويضيف الدكتور بسام اننا « باعتمادنا الكلي او شبه الكلي على الشعر الغربي في تجديدنا انما نقع في التقليد من حيث لا ندري ، فهو نفسه قد اصبح شعرا قديما تفصله عن عصره مسافة زمنية واسعة ، ونحن باسترفادنا له انما نبتعد عن عصرنا مسافتين لا واحدة ، زمنية هي تلك التي تفصل الشعر الغربي عن عصره ، ومكانية هي تلك التي تفصلنا عن الغرب وطبيعته وثقافته » (٧) .

ان الدعوة الى الانفصال عن الثقافات العالمية دعوة غير صحية ، فليس بامكان ادبنا كما اسلفنا ان يعيش بين اربعة جدران . وانما الذي ينبغي ان ندعو اليه بقوة وصرامة هو الا يقع الاديب العربي في هذا التقليد الشائن ، الذي يفقده شخصيته ، ولا يعبر عن المرحلة الحضارية التي يمر بها الشعب العربي . على ان التقليد مذموم مهما كانت نوعيته فليس المقلد للشعر الغربي وحده هو الذي ينبغي ان يوجه اليه اللوم ، بل علينا ان نرفض التقليد حتى ولو تعلق بالنماذج العربية الجيدة . ان القصيدة الحقة ليست صورة مكررة لقصيدة قديمة او حديثة غربية كانت ام عربية . انها تعبير صادق عن موقف اصيل يقفه الشاعر من احداث عصره ، وصورة لنفس صاحبها وفكره وفلسفته التي ان هي في آخر الامر الا جزء من الموقف العام الذي يقفه شعبه من الحياة بجميع قطاعاتها.

السبب الثاني الحقيقي لازمة الاديب العربي هو ما يمكن ان نطلق عليه مؤقتا « انفصال الاديب » عن المحيط الذي يعيش فيه . ولا ينبغي ان نفهم من هذه العبارة معناها الضيق ، أي انطواء الاديب ، وعدم اهتمامه بما يجري حوله من احداث . فقد مرت هذه المرحلة بالادب العربي يوم كان هذا الادب وسيلة من وسائل التسلية والترفيه . اما منذ بداية النهضة ، ودخول الشعب العربي في صراع مع الاستعمار تارة ، ومع التخلف تارة اخرى فقد تخلى الاديب عن هذه النزعة الذاتية ، وعاد يهتم بشؤون مواطنيه اهتماما يتفاوت حدة واتصالا من اديب الى آخر، لسنا نقصد بانفصال الاديب هذا المفهوم الضيق وانما نريد انفصالا ادت اليه حيرة الاديب امام الاحداث ، وعدم عثوره على الاسلوب المناسب للتعبير عن موقفه وموقف مواطنيه من هذه الاحداث .

لقد كثرت الازمات والانتكاسات على الامة العربية ، واشتدت الخلافات بين قادتها ومفكريها بخصوص الحلول المناسبة لهذه الازمة . ومن سوء الحظ ان ادباءها ومفكريها قلما يستشارون في مصائر شعوبهم ، وحتى اذا استشيروا كان لارائهم ووجهات نظرهم الوزن الاقل . وهذا الوضع للاديب في بلده وبين قومه هو الذي يفرض عليه ضربا من الحيرة ، ويجعله يقف متفرجا في كثير من الحالات . وعندما يضطر هو الى التفرج والتفكير في مصير امته وفنه ، ، تستمر الحياة الاجتماعية والسياسية في حركتها الى الامام ، واحيانا الى الوراء . فاذا ما افاق من حيرته ، وود ان يسهم بفنه في اصلاح ما فسد ، او في تعميق الاتجاه الصحيح في نفوس مواطنيه ، وجد نفسه قد تجاوزته الاحداث ، وعاد يعيش على هامش المجتمع . وفي هذه الحالة اذا حاول ان ينظم قصيدة ، او ان يكتب رواية او قصة او مقالة ، احس بهذا الانفصال الذي اشرنا اليه ، والذي فرض عليه فرضا . وهكذا نجد الاديب العربي اليوم في حيرة قاتلة ، فهو لا يستطيع ان يصمت الى الابد ، أي ان يرضى بموقف المتفرج على ما يجري حوله من احداث واذا نطق احس بنوع من الفتور واللاجدوى فيما يقول .

هناك سبب ثالث لا بد من ذكره والالحاح عليه،وهو هذا الاتجاه العلمي الحاد الذي تسيره بعض البلدان العربية ، ولا سيما البلدان التي تطمح الى الاكتفاء الذاتي السريع في البضائع المصنعة ومرافق الحياة الاخرى . ان لهذا الاتجاه فائدة كبرى فيما يتعلق بتقدم البلدان العربية، وتطورها في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية . وهو امر نوصي به ونحبذه لان شعبنا في حاجة ماسة الى الثقة في نفسه،وفي الاساليب والمناهج العلمية التي تعتمدها في مسيرتها . لكن بالرغم من هذه الفائدة الكبرى التي يجنيها الاقتصاد الوطني في كل البلدان العربية ، لا بد من ملاحظة الجانب السلبي في التطور في الدعوة الى هذا الاتجاه لان بلداننا تطمح الى بناء الانسان العربي كما تطمح الى بناء اقتصاد قوي متحرر من كل التبعيات والانسان لا يبنى بالعلوم التقنية فحسب ، بل يبني بها وبالعلوم الانسانية من تاريخ وحضارة وفلسفة وادب وفنون جميلة وقانون وما اليها من المعارف الانسانية التي تدرس لذاتها قبل ان تدرس لما يمكن ان يجنى منها من نفع .

ان الاهتمام بهذه المعارف يتقلص من سنة الى اخرى، ويظهر ذلك جليا في المقارنة بين الاعداد الضخمة من الطلبة الذين يتجهون كل عام الى الطب والعلوم الدقيقة وما اليها والاعداد الصغيرة التي لا تشكل اكثر من عشرين في المائة ، والتي تختار احد الفروع من العلوم الانسانية الانفة الذكر. ان الاديب الذي هو في اغلب احواله مدرس في احد المعاهد الثانوية والعليا يعيش ازمة نفسية عميقة عندما يشاهد اعراض طلبته عن العلوم الانسانية ، واحيانا احتقارهم لهذه العلوم واصحابها ، فكيف ننتظر من هذا الاديب ان يواصل السير في الطريق الذي أهمله تلاميذه

في ابتسامة المشفق على السائرين فيه ؟

ان الحل الاصوب لهذه المشكلة في نظرنا يكمن في عدم التطرف ، أي في تشجيع الاتجاه العلمي دون استقلال الاتجاه الادبي الذي يبني الشخصية المعنوية للمواطن مسؤول الغد . فنحن نريد ان نبني الانسان العربي العالم الواعي بشخصيته واصالته ، الغيور على مقومات وطنه وامته . ولا يمكن تحقيق هذه المنية الا اذا دعونا في سياستنا الاجتماعية والاقتصادية الى شيء من التوازن بين العلوم التقنية والعلوم الانسانية . وان اخشى ما نخشاه ان استمرت الدعوة الى الاتجاه العلمي في الاستفحال والتطرف هو ان نجد انفسنا في ازمة انسانية بدل الازمات الاقتصادية والاجتماعية التي تشتكي منها بعض بلداننا ان العلوم التقنية تخلق الالة فقط ، وتطمح الى ان تجعل من الانسان الذي يطبقها انسانا آليا لا يفهم الا لغة الارقام والمعادلات . فاذا لم يكن لهذا الانسان سند من العلوم الانسانية افتقدناه وافتقد نفسه في مرحلة من مراحل حياته . وهو ما لا نريده طبعا لبلداننا الناشئة .

يجرنا الحديث عن العلم والادب الى الاشارة الى بعض الاسباب التي يراها بعض المفكرين اساسية، ونراها نحن ثانوية لا علاقة لها بما تواضعنا على تسميته « بأزمة الادب العربي » . ومن هذه الاسباب ما يسميه محمد مفيد الشوباشي عدم انتهاج النهج العلمي الدقيق (٨) ، ويلح عليه الدكتور ابو القاسم سعد الله كعلاقة بين الادب والتكنولوجيا (٩) .

ان مطالبة الاديب بالتعبير عن المستوى الحضاري لامته امر جوهري ، وخاصة في المرحلة الحاسمة التي تمر بها شعوبنا . بل ان عدم قيام الاديب بهذه الرسالة يخرجه من طائفة الادباء الذين تعتز بهم الامة العربية . على ان انفصام الاديب عن مجتمعه بهذا الشكل لا يمكن ان يكون الا في فترات الانحطاط والتخلف . ونحن اليوم بحمد الله في بداية نهضتنا ، أي نحاول ان نخرج من التخلف الفكري والاجتماعي الذي عشناه مكرهين طوال القرون السابقة . ولكن هذا شيء وكون الاديب يتصل بعلوم بلاده وحضارتها شيء آخر . فعدم تعبير اديب عصور الانحطاط عن المستوى الحضاري لامته لا يدل على انفصامه عن امته بقدر ما يدل على تخلف الامة العربية في هذه الفترة . بل قد نجانب الحقيقة اذا زعمنا أن البوصيري وابن الوردي لم يعبر ا عن عصرهما ، فقد كانت مدائحهما النبوية على حد تعبير سعد الله دليلا على ان الامة العربية بلغت حينئذ مستوى من الانحطاط والتخلف لا تحسد عليه . فكان الاولى للدكتور سعد الله ومن يقولون برأيه أن يتحدثوا عن ازمة المجتمع العربي بدل الحديث عن ازمة الادب العربي . فهذا الادب مهما كانت ظروفه لا يمكن الا ان يكون صورة لما يعتمل في المجتمع وافراده وانما الصورة الادبية تختلف حدة ووضوحا وشمولا وعمقا من اديب الى آخر . وهذا التفاوت في طبيعة الصورة يشاهد في عصور الانحطاط كما يشاهد في عصور الازدهار . فالمتنبي والجاحظ وابو تمام لم يعبروا بنفس القدر عن المستوى الحضاري للامة العربية في عصور الازدهار . ونفس الشيء يمكن ان يقال بالقياس الى البوصيري وابن الوردي وغيرهما.

هذه هي حالة الاديب العربي المعاصر ، وهذه هي الاسباب الحقيقية في نظرنا لتعثره وتأزمه فهل يعني الاعتراف بوجود ازمة ادبية ان ادبنا العربي المعاصر محكوم عليه بالتخلف عن ركب الاداب العالمية الكبرى ؟ ام يعني فقط ان علينا ان نهتم بوسائل تطويره ، وان نوفر الظروف الموضوعية لازدهاره قبل فوات الاوان ؟

لقد اظهر الادب العربي في مختلف العصور انه قادر على الصمود ، وانه مستعد في كل وقت لتجاوز الفترات العسيرة بنجاح . وخير دليل على قدرته واستعداده ما فعله في بداية النهضة . فقد استطاع ان يحافظ على امكانات تطوره في عصور الانحطاط الطويلة ، وان يمكن شاعرا مثل البارودي بالبروز كأقوى ما يكون في فترة كان اشد المتفائلين لا ينتظرون بروز اقل منه بعشرات المرات ، وفي عقود قليلة بعد البارودي استطاع الادب العربي ان يهضم كثيرا من المذاهب الغربية الحديثة ، فظهرت الفنون النثرية المختلفة التي لم يعرفها الادب العربي قبل هذا التاريخ . واذا كان ادبنا استطاع ان يفعل ذلك في فترة كان فيها اقرب الى الموت منها الى الحياة ، فانه اليوم في مستوى من التطور والنضج والقوى والتنوع يمكنه من ان يتجاوز نفسه في يسر ، وان يسلك سبيلا يؤدي به في آخر المطاف الى الحياة التي نريدها له . ولكنه لا يستطيع ذلك ما دمنا لم نفكر جديا في دور الاديب في المرحلة الحضارية الحالية ، وفي الظروف الموضوعية التي تسمح له بالقيام بهذا الدور على الوجه الاكمل .

لا نعتقد اننا نختلف في طبيعة الدور الذي ننتظره من الاديب العربي في هذه الفترة فالحياة الاجتماعية والسياسية والعقائدية التي يعيشها الشعب العربي من الخليج الى المحيط تفرض على الاديب ان يكون واعيا بظروف عمله الفني . انه يعيش في وسط المجتمع العربي، فمن المفروض ان يعيش مشاكل هذا المجتمع ، ان يعيشها بشكل ايجابي يدفعه الى محاولة التعبير عند الحاجة ، والى دعم الاتجاه المفيد في المسيرة العربية .

وقد يرى بعضنا ان الاديب باعتباره فنانا لا علاقة له بالحياة اليومية للشعب ، ولكن هذا كلام يمكن ان نتصوره نظريا . اما عمليا فمن غير الطبيعي ان ينفصل الاديب عن هذه الحياة ، فهو عضو في مجتمع ، يهمه ما يهم هذا المجتمع ، ينعم اذا نعم وتوفرت لافراده الحياة الكريمة ويشقى اذا شقي المجتمع وانعدمت فيه وسائل العيش الكريم ، فهو فرد كامل من هذا المجتمع سواء شعر بذلك ام لم يشعر . وهذه العضوية هي التي تجعله على اتصال دائم بمشاكل الاخرين ، التي هي مشاكله في نهاية الامر . ولهذا كان الفن انعكاسا لما يسود في « المجتمع من

افعال ، وما يترتب على هذه الافعال من ردود » (١٠) : ولهذا لا يمكن تصور الادب بخاصة ، والفن بعامة منفصلين عن المجتمع ومشاكله ، لان الادب والفن كليهما يستمدان مادتهما من هذا المجتمع (١١) .

غير ان الاديب لا يمكنه ان يفيد من عيشه في وسط المجتمع الا اذا ملك وعيا حادا يميزه عن الرجل العادي ، هذا الوعي الذي يجعله يحس بضرورة انتمائه الى المجموعة ويضع يده على المشاكل الحقيقية للمجتمع . لان لكل مجتمع مشاكل حقيقية واخرى مزيفة ، والاديب الواعي يميز باحساسه وثقافته بين هذه المشاكل ، فلا يهتم الا بالاساسية التي تؤثر على مسيرة المجتمع ، ولعل المشكلة الاولى التي يعاني منها المجتمع العربي هي كيفية بناء الانسان العربي الجديد الذي يناسب المرحلة الحضارية التي نمر بها ، الانسان الذي يدرك نفسه ومقدراته الحضارية ، ولا يرفض ما تمده به الثقافة الانسانية والحضارية الناتجة عنها ، ان بناء هذا الانسان ليس يسيرا كما قد يتبادر الى ذهن الكثيرين ، فاذا كانت القيادات العربية تحاول ان تبنيه من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فان على الاديب العربي ان يسعى بدوره الى بناء هذا الانسان من الناحية الحضارية الفنية الجمالية . فهذا الانسان الجديد لا ينبغي ان يكون مقطوعا لا عن ارضه وماضيه ، ولا عن ثقافته وحضارته ، وعلى كاهل الاديب تقع مهمة تنويره بهذه الحضارة وما تشتمل عليه من خصوصيات .

اهتمام الاديب العربي بمشاكل مجتمعه الخاص ، وسعيه من اجل خلق انسان هذا المجتمع ، لا يعدان من الاقليمية في شيء بأن الانسان العربي واحد في كل الاقطار العربية ، رغائبه واحدة ، وهمومه متشابهة ، ومشاكله لا تختلف الا في ظاهرها . فاهتمام الاديب الجزائري مثلا بمشاكل المجتمع الجزائري هو اهتمام بمشاكل المجتمعات العربية الاخرى في الوقت ذاته ، وعمله من اجل بناء الانسان الجزائري الذي يناسب المرحلة الاشتراكية التي تنتهجها بلادنا عمل من اجل بناء الفرد العربي في كل قطر عربي ، لان ما يجنيه عربي في أي قطر هو في الحقيقة ثمرة يجنيها كل عربي في سائر الاقطار . وبهذا يكون كل ادب عربي يعالج مشاكل مجتمع عربي ما ادبا قوميا بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، ولا يعتبر ادبا وطنيا الا على سبيل التجاوز ، أي باعتبار انه انشيء في مجتمع معين ، وعالج مشاكل هذا المجتمع (١٢) .

غير ان قيام الاديب بهذا الدور يتطلب منه جرأة كبيرة ، فقول الكلمة الحرة ليس متيسرا في البلدان العربية . وهو يحتاج الى هذه الجرأة لا في قول الكلمة الحرة فحسب ، بل وفي طرح المشاكل الاساسية بالاسلوب المناسب كذلك . ان المشاكل كما سلف كثيرة ومتعددة ، والاراء حولها مختلفة . فما هي المشكلة التي يهتم بها الاديب قبل غيرها ؟ وما هو الاسلوب المناسب لاتخاذ موقفه الملتزم الصريح منها ؟ كل ذلك ليس سهلا كما يعتقد الكثيرون فالادب ليس لعبة يهون فيها الخطأ ويستحب الصواب . بل هو موقف مدروس يتخذه الاديب امام الجيل الذي يعيش فيه ، ويبقى شاهدا عليه لذي الاجيال المقبلة .

يرى الدكتور الجنحاني ضرورة طرح المفاهيم واختلافها في هذه المرحلة . وهو محق في هذا الرأي ما في ذلك شك ، لان اختلاف المفاهيم وتشعبها حول القضية الواحدة يضر اكثر مما يضر انعدام هذه المفاهيم بالمرة . يقول الباحث التونسي في هذا الصدد : « فلا مناص اذن من طرح قضية المفاهيم الفكرية والتحديد النظري . فهي قضية ملحة جوهرية . فلا بد من وضع العلامات المميزة لكل منها ، وتوضيح قسماتها ومضامنها واشكالها الاجتماعية ، ومنطلقاتها الفكرية بغية تحديد الرؤية لما ستفرزه من نوازع ومواقف في حاضرنا الراهن » (١٣) .

ومهمة تعرية المفاهيم وتحديد المشاكل مهمة عسيرة تحتاج ، بالاضافة الى الجرأة السالفة الذكر ، الى التزام الاديب بقضايا وطنه وقومه . وهو الالتزام الذي سال حوله كثير من المداد ، وتضاربت الاراء لدرجة ان الكثيرين اصبحوا لا يفرقون بين الالتزام الحق والالتزام المزيف . والالتزام الحق في نظرنا لا ينافي الفن بحال من الاحوال فالاديب ينبغي ان يهتم في ادبه بشؤون وطنه وقومه والانسانية قاطبة . ولكن هذا الاهتمام لا يتصور خارج الفن ، أي ان الاديب الملتزم انما يظهر التزامه من خلال الموقف الذي يتخذه في قصيدته او قصته او مسرحيته او مقالته . وهذا الموقف لا يعتبر موقفا ادبيا الا اذا اكتسب عبارة جميلة خالية من كل شعار ، ونابعة من نفس الاديب ذاته . وبهذا يكون الالتزام بدون فن التزاما ناقصا ما دمنا نتحدث في الادب والفن والا انصرف كلامنا الى الالتزام الفكري العام ، الالتزام الذي يلتزمه المفكر ، والسياسي ، والعامل ، والجندي ، وكل مواطن يعيش في مشكلات عصره ومجتمعه . وهو على كل حال ليس الالتزام الذي ننتظره من الاديب . يقول غالي شكري في قضية الانجاز كما يسميه احيانا : الفن منحاز . ولكنه فن اولا وقبل كل شيء . وفي مسألة الانحياز يجب ان نعي نقطتين هامتين : ان الانحياز الفكري في الادب والفنون يتخذ نفسه من الاساليب البعيدة عن الجهر والمباشرة والتقريرية ما ينأى به كثيرا او قليلا عن مشاكل الانحياز في العلوم الانسانية الاخرى . والمسألة الثانية هي ان ثمة فرقا اساسيا بيننا وبين المجتمعات الاشتراكية هو اننا لسنا بعد في مجتمع اشتراكي » (١٤) .

بالرغم مما يمكن ان نلاحظ على كلام الكاتب المصري وبخاصة محاولته التفريق بين المجتمعات العربية والمجتمعات الاشتراكية في تفسير الظاهرة الادبية ، فان الامر الذي نخالفه فيه هو ان الفن فن مهما كانت حقوقه ومشروعيته من شروط الفن ذاته . ولعل من ابرز هذه الشروط ان يحترم الاديب نفسه ورسالته فلا يصدر الا انطلاقا منهما ، والا

اذا كان موقنا من انه يوفر لفنه خصوصية كافية تميزه عن فن الاخرين وبهذا نكون قد وصلنا الى الشرط الاخر الضروري لكل عملية ادبية ناجحة ، وهو شرط الحرية الذي ينادي به معظم الادباء العرب على اختلاف اتجاهاتهم الفنية ونزعاتهم السياسية . فهذه الحرية هي التي تجعل الالتزام الزاما حقا ، وتمنعه من ان ينقلب التزاما يصير معه الاديب آلة مسخرة في يدي اية سلطة سياسية قائمة . ان الشعب العربي في حاجة الى ادب رفيع يقول كلمة الحق عن طريق الفن دون اكراه او خوف ، وهذا الادب لا يكون الا في اطار هذه الحرية التي تمنح الاديب حق الغوص على المشاكل الاجتماعية والسياسية دون خوف من أي كان .

ان الذي يفرق بين الاديب وبين غيره هو هذه الحساسية المرهفة وهذا الصدق الذي يجعله يعبر عما يحس به دون مراعاة لاي شيء فالاديب كما يقول عبد الله القويري « ليس فقط هو كاتب القصة او المقال او الرواية او القصيدة . ولكنه هو ذلك الانسان الذي أحس وفكر ثم عبر عما احس به وعانى تفكيره بأي شكل من الاشكال الفنية » (١٥) . والدكتور سعد الله يلح كذلك على هذه الحرية ، ويراها شرط كل ابداع جيد ، فهو يؤكد ان كل قيد على الحرية المطلقة للاديب هو « هدم للقيم التي نطالب بها الاديب على اساسها بالانتاج المساير لعصر الثورة التكنولوجية » (١٦) .

والحق ان الحرية لا تنفصل في الاعتبار عن الالتزام فهما في نظرنا وجهان لشيء واحد . ولا يمكن للاديب ان يلتزم بقضايا مجتمعه ووطنه والانسان بصفة عامة ما لم يكن يملك هذه الحرية بحيث يستطيع ان يتخذ المواقف التي يراها ، والتي تتماشى وموقفه المبدئي من الحياة والناس والحرية هذه ان كانت في الماضي تمنح للاديب فرصة للضياع والعبث بفنه متى شاء وكيف شاء ، فانها اليوم فرصة الاديب المعاصر لان يتخذ الموقف الوطني والقومي او الانساني الذي يريد ، والذي يخدم قضيته الانسانية في النهاية ، دون أي اكراه يسلط عليه من أية جهة كانت ولا خوف من ان تستخدم الرقابة ضد عمله الادبي .

ان النظم السياسية في كثير من البلدان العربية تفتقر الى القاعدة الشعبية ، وتعمل جاهدة على ابقاء الجماهير جاهلة بهذه الحقيقة ، وبمصيرها السيء . تحت هذه النظم لا يمكن للاديب ان يكون ملتزما الا اذا كان يتمتع بقدر كبير من الحرية والجرأة على قول الحق فيما يجري من حوله . ونحن نعلم أن هذه الحرية وهذه الجرأة ليستا من الامور الهينة بالنسبة الى هذا الاديب والطاقة الوحيدة التي يتمتع بها الاديب في هذه الحالة انما هي ثقته في القارىء ، وتجاربه مع الجماهير المحرومة في مجتمعه . هذه الثقة وهذا التجاوب هما سلاحه الوحيد لافتكاك حريته واتخاذ موقفه من الحياة . وافتكاك حريته اعتمادا على تجاوب الجماهير ودعمها هو افتكاك لحرية هذه الجماهير في الوقت ذاته . وهذا دليل اضافي على ان الفصل بين الحرية وبين الالتزام شيء مصطنع ، على ان القائلين بامكان الالتزام دون اعتبار للوجه الثاني من القضية ، هو الحرية ، انما يقولون قولا يرفضه المنطق ، ويتنافى وطبيعة الفن ذاته ، وخلاصة الامر هي ان لا تعارض اطلاقا بين مبدأي الحرية والالتزام في الفن ، بل بينهما تكامل ضروري وصحي لكل منهما . وهذا التكامل هو الذي نريد لادبائنا ان يعملوا من اجله ، ونحن هنا طبعا لا نتكلم عن كل الادباء وانما نتوجه الى الادباء الواعين الغيورين على فنونهم ، الذين لا يفرقون بين هذه الفنون وبين مواقفهم من القضايا الاجتماعية والانسانية .

هذا ما تسنى لنا ان نقوله في هذا الموضوع الحيوي، وهو موضوع من التشعب بحيث لا تكفي فيه هذه الدراسة المتواضعة . وبالرغم من اننا تعمدنا الاختصار الشديد في العرض والتحليل ، الا ان اقل ما يمكن ان نجمله في هذه الخاتمة هو انه اذا كنا نتفق على ان ادبنا العربي المعاصر يوجد في منعرج خطير ، فان بامكانه ان يجتاز هذه المرحلة الحرجة ، وهذا لا يمكن الا اذا ادرك الاديب دوره في المجتمع على وجه التحديد ، وامتلك جرأة كافية لان يسير بفنه الى آفاق أوسع، آفاق الحرية التي لاتتنافى ورسالته الوطنية والقومية والانسانية . واذا كان من واجب القيادات العربية ان تعترف للاديب بدوره الايجابي البناء في المسيرة التي تسيرها مجتمعاتنا وامتنا ، فان من حق الادب الا ينتظر من هذه القيادات أية منحة ، بل عليه ان يفتك حريته كاملة ، وان يعمل على انشاء ادب قوي يذكر بمجد الامة العربية ، ويؤسس لحضارة عربية معاصرة خالدة .

**د. محمد مصايف**

الهوامش

١ ـ انظر دراسة للعقادفي« مهرجان الشعر الرابع » عام ١٩٦٣ .
٢ ـ انظر هذه الدراسة في مجلة الفكر ( تونس )ع٧ ،افريل ١٩٧٣.
٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٧١ . ٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٧٥ .
٥ ـ المرجع نفسه ، ص ٨٣ .
٦ ـ الثقافة العربية ( ليبيا ) ، آبريل ١٩٧٧، ص ٤٩ ـ ٥٠ .
٧ ـ المرجع نفسه ، ص ٥١ .
٨ ـ انظر « الادب ومذاهبه »، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠ ، ١٦١ .
٩ ـ الدراسة التي القاها الدكتور باسم الوفد الجزائر في المؤتمر التاسع للادباء العرب ، تحت : « الادب والتكنولوجيا » اقرأ هذه الدراسة في مجلة الثقافة ( الجزائرية ) ، ع ١٤ ، ابريل.
١٠ ـ عبدالله القويري ، طاحونة الشيء المعتاد ، الدار التونسية للنشر ١٩٧١ ، ص ١٢ .
١١ ـ جلال فاروق الشريف ، الموقف الادبي ( سوريا ) ، ع ١٧ اذار ١٩٧٧ ، ص ١١ .
١٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٨ .
١٣ ـ الفكر ، ع ٧، افريل ١٩٧٣ ، ص ٧٤ .
١٤ ـ ثقافتنا بين نعم ولا ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢، ص ٣٨ .
١٥ ـ طاحونة الشيء المعتاد ، ص ٩ .
١٦ ـ الثقافة ( الجزائرية ) ، ع ١٤٠ ، افريل ـ ماي ١٩٧٣ ، ص١٤٢.